الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٦٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٨ — الثلاثاء ١١ من جمادى الأولى سنة ١٣٦١ — ٢٦ من مايو سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

نحو الوحدة العربية :

نوع الوحـــــدة العربية

إن فى الحقوق الدستورية من المرونة ما يبيح أن تقام الدولة الجديدة على غرار جديد يختلف عن الأنواع المعروفة حتى اليوم ، بل إن فى هذه الحقوق مرونة لا نهاية لها ، تمكن من التكييف فى شكل الدولة وجعله ملائماً لنفسية الشعب ، وتاريخ الأمة ، ووضع البلاد . فالبلاد العربية غير مقيدة بقبول نوع من أنواع الدول التى أوردنا موجزاً لها فى المقال السابق ، بل هى حرة فى إيجاد ما يلائمها من نوع الدول الصالح لها . واختيار نوع الدولة يتطلب درس الوضع السياسى الحالى للبلاد العربية ، والنفسية السياسية لسكانها ، والتوفيق بين هذا الوضع وهذه النفسية من جانب وبين نوع الدولة التى يرجون من ورائها تقوية الروابط بين أقطارهم ، تقوية تؤدى مع الوقت إلى الوحدة المنشودة ، من الجانب الآخر .

وإذا نظرنا إلى البلاد العربية ، رأيناها منقسمة إلى قسمين رئيسيين : أولهما يشتمل على طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وتحكمه الدول الغربية مباشرة ، ولا يتمتع أهله بشئ من السيادة . أما الثانى فيشتمل على مصر ، وبر الشام ، والعراق ، والجزيرة ، وهى مستقلة بعض الاستقلال ، والسيادة القومية فيها على درجات متفاوتة . فمصر مستقلة تربطها مع بريطانيا معاهدة ، وكذلك العراق . أما الجزيرة فهى منقسمة إلى قسمين رئيسيين : أحدهما نجد والحجاز ، والآخر اليمن ، والسيادة فى كل من القسمين عائدة إلى مليكه . غير أن إمارات الكويت والبحرين وحضرموت وهى أقاليم من الجزيرة صغيرة نسبياً ، تسودها بريطانيا . أما بر الشام فتنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية : فى الشمال تقع سوريا ولبنان ، وهما مستقلان

حديثا ، وترابطهما مع الفرنسيين الأحرار معاهدتان ، وفي الجنوب يقع الشرق العربي (شرق الأردن) وفلسطين ، يجمع بينهما أنهما تحت الانتداب البريطاني ، ويختلفان في أن الأول مستقل إداريا وسيادته الخارجية بيد بريطانيا ، بينما الثاني تحكمه بريطانيا حكما مباشرا . والعرب يرمون إلى وحدة تجمع أقطار الوطن العربي ، من أقاصي العراق حتى أقاصي مراكش . غير أن الوضع السياسي القائم في طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، لا يمكن الآن من التفكير في ضم هذه الأقطار في مشروع الوحدة العربية .

وهذا لا يعني أن هذه الأقطار أقل عروبة من غيرها ، بل إن واقع الحال يدل على أن العروبة فيها عظيمة جدا ، ولا تقل عما هي عليه في بقية الأقطار العربية إن لم تكن تزيد ، كما أن ميلها إلى الوحدة العربية قوى جدا لا يقل عما هو عليه في بقية الأقطار . وكذلك لا يعني هذا أن تلك الأقطار ستظل بعيدة عن الوحدة ، بل إن من واجب الأقطار العربية الأخرى ، لا سيما بعد نيل وحدتها ، أن تعمل بجد وقوة على إدخال هـذه الأقطار في الوحدة العربية الكبرى . وعليه فمشروع الوحدة يشمل اليوم مصر ، وبر الشام ، والعراق ، والجزيرة . وكل مشروع للوحدة ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار وضع هذه الأقطار السياسي ، وحالات سكانها النفسية السياسية ، أي أن المشروع ينبغي أن يحقق تقوية الروابط بين هذه الأقطار ، ويجعل منها ، في بعض النواحي ، كتلة واحدة تجاه الأمم الأجنبية ، مع مراعاة غيرة كل إقليم على سيادته الخاصة ، واحتفاظه بالاستقلال في معظم أموره الداخلية والخارجية .

* * *

إن نظام الاتحاد Fédération هو خير أنواع الوحدة للبلاد العربية ، إذ أنها تبقى بموجبه متمتعة بسيادتها الداخلية ، حاكمة نفسها ، ومدبرة شئونها كما تحب وترغب ، وبموجبه تتوحد قواها ، وتكون لها سياسة خارجية واحدة ، فتصبح دولة واحدة كبيرة تجاه الدول الأجنبية ، فتصبح منيعة الجانب ، رفيعة المكانة ، ذات شأن في السياسة الدولية .

غير أن الوضع السياسي القائم في البلاد العربية لا يمكن من الوصول إلى هذه الغاية دفعة واحدة ، ولا يسهل معه التفكير الآن في وضع مشروع لنظام الاتحاد العربي ، وذلك لأن في الأقطار العربية المستقلة ملوكا وحكومات يعز عليها أن تتنازل عن سيادتها الخارجية ، وتسلمها إلى سلطة مركزية عليا سلطة الاتحاد . ولهذا ينبغي التفكير في نظام يبقى للملوك والحكومات سيادتها الداخلية والخارجية ، ويمكنها من التفاهم على توحيد بعض أمورها وأعمالها . وقد رأينا أن في الإمكان الاتفاق على نظام قريب من نظام التحالف Confédération يؤدي إلى الغاية ، ويخطو بالحكومات العربية ، من وضعها الحالي ، إلى وضع الاتحاد الخالص ، في خطوات متعددة . وفيما يلي بعض تفاصيل هذا النظام .

تبقى الدول العربية محافظة على ما لها من السيادة . غير أنها ، عملا على مصلحتها المشتركة ، تتفق فيما بينها وتتحالف على توحيد جهودها في ميادين معينة . وهـذه الميادين هي : التعليم والتشريع ، والجمارك ، والدفاع القومي ، والسياسة الخارجية .

وللوصول إلى تنفيذ ذلك ، تشكل الدولة العربية هيئة عامة ، قد يصح أن تدعى «مجلس الدول العربية المتحالفة» ولتمثيلها في هـذا المجلس تعتبر أربع وحدات : أولاها مصر ، والثانية بر الشام (سوريا ، لبنان ، فلسطين ، شرق الأردن) والثالثة العراق ، والرابعـة الجزيرة العربية . ويكون لكل وحدة في مجلس الدول العربية المتحالفة عدد متساو من المبعوثين المطلق الصلاحية . ويحسن أن يكون عدد مبعوثي كل وحدة خمسة ، وعليه يكون المجلس مؤلفا من عشرين مبعوثا ، تعينهم حكومات الدول المتحالفة ، وتكون

عضوية كل منهم خمس سنوات ويتجدد خمسهم كل سنة .

وللوصول إلى تكوين وحدة من بر الشام ، الجزأ الآن إلى أربع دول وحكومات ، يشكل من هذه الدول والحكومات اتحاد يدعى « الاتحاد السورى » . وحكومة الاتحاد المركزية هذه تمثل وحدة بر الشام فى التحالف العربى .

ويكون لمجلس الدول العربية المتحالفة مقر دائم فى إحدى المدن المتوسطة بين الأقطار العربية ، على أن لا تكون إحدى عواصم هذه الأقطار . ويكون له رئيس من أعضائه ، ينتخب كل سنة مرة ، على أن يترأس المجلس أحد أعضاء كل وحدة من الوحدات الآنفة الذكر بالتوالى . ولا يكون للرئيس صلاحيات سياسية خاصة ، بل يكون مركزه شرفياً ، وتنحصر مهمته فى إدارة الجلسات . وطبيعى أن يكون للمجلس سكرتيرون ومكاتب خاصة حسبما تقتضى الأحوال .

***

أما صلاحيات هذا المجلس فتتناول التعليم ، والتشريع (المدنى والجزائى والتجارى) والجيش ، والدفاع القومى ، والسياسة الخارجية :

إن توحيد التعليم فى البلاد العربية أمر حيوى لا بد منه ، سواء تمت الوحدة العربية أم لم تتم ؛ إذ أن اختلاف مناهج التعليم فى البلاد العربية يعدد المشارب ، ويباعد بينها . أما توحيد التعليم فيساعد على التفاهم ، ويجعل للبلاد العربية روحاً ثقافية واحدة . ولهذا فلا غرابة أن يهتم مجلس الدول العربية المتحالفة بالتعليم ويعنى بتوحيده ، ويجعل هذا من طلائع أعماله .

وتوحيد التشريع ، لا سيما المدنى والجزائى والتجارى منه ، مزيل لهذه الفوارق القانونية الموجودة الآن بين البلاد العربية . وتوحيد هذا النوع من التشريع هين سهل ، لأن له فى جميع البلاد العربية أساساً واحداً ، وهو الشرع الاسلامى مشفوعاً بالاجتهاد . وإننا على يقين من أن الشرع الاسلامى ، إن فهم على حقيقته ، وعمل بطرق التشريع فيه ، وهى لا تتقيد بشىء سوى العقل ومصلحة الجماعة — أمكنه الاتيان بقوانين تتلاءم التلاؤم كله مع مقتضيات العصر الحديث ، مع المحافظة على المبادىء الحقيقية القويمة التى جاء بها الدين الحنيف . لقد عللوا جواز النسخ بأن المصلحة قد تختلف باختلاف الأوقات . فإذا كانت المصلحة تختلف فى الوقت القصير أيام النبى المعظم ، أفلا يجوز أن تختلف على مر السنين والدهور التى تعاقبت منذ ذلك التاريخ ! . بلى . وعليه ألا يجب أن يكون باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه فى وضع القوانين التى تلائم العصر الحاضر ، دون أن تتضارب مع الشرع الحنيف ؟ . ونعتقد أن لا غضاضة على الدول العربية إذا هى عهدت إلى مجلس الدول العربية المتحالفة ، بوضع تشريع عام فيما ذكرناه من المواضيع ، على أن تحتفظ هذه الدول بما لها من حق فى التشريع فى القوانين الأخرى ، لا سيما المالية منها .

والوضع الاقتصادى فى معظم الأقطار العربية ، إن لم يكن فيها أجمع ، غير طبيعى . والحواجز الجمركية بين هذه الأقطار ضارة باقتصادياتها ضرراً عظيماً . والأمور الاقتصادية تتطلب درساً علمياً عميقاً متقناً ، وتسوية منطوية على الحصافة وبعد النظر والجمع بين مختلف المصالح . فمجلس الدول المتحالفة يتمكن من درس هذه الأمور وإيجاد حل لها فى مصلحة الجميع .

أما قوى الدفاع القومى ، من برية وبحرية وجوية ، فتبقى تحت إمرة وإدارة الدول المتحالفة كل ضمن دائرتها . على أن يكون « المجلس » حق تنسيق هذه القوى ، بمعنى أنه يعين الحد الأدنى الذى ينبغى أن تكون عليه فى كل دولة ، ويوصى بأن تأخذ كلها بنظام واحد للتدريب وأنواع واحدة من المعدات . ونرى من الخير أن يكون بجانب مجلس الدول العربية المتحالفة « هيئة أركان حرب عليا مشتركة » تشرف بصورة عامة على القوى الدفاعية للدول المتحالفة ،

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكى بك

أسباب الثورة اليابانية

ومن أسباب الثورة اليابانية ، أو ثانى أسبابها ، الكُنفوشية .

وحديثها أنه فى أوائل القرن السابع عشر ، تولّت حكمَ اليابان أسرةُ توجوكاوا . وكان أول شواجنها على ما يذكر القارئ الشوجن أيئاسُو . فهذا منح رعايته للآداب فى عصره ، وأمر بإحياء « العلم القديم » وتحصيل كتبه ونشرها ودراستها . والعلم القديم والأدب القديم إنما قصد إلى كتب الكنفوشية الصينية وتعاليمها ، إلى كتب كُنفُج الحكيم وما تلاه من حكماء الصين ففسروا حكمته وشرحوها وزادوا فيها .

والكنفوشية على ما قدمنا لها رأى فى السياسة فريد . فمن آرائها أن الحكم فى الصين ، وفى أى بلد غير الصين ، لا يكون إلا للفضيلة وبالفضيلة . فالحاكم لا يكون حاكما إلا لحظه الفائض من الفضل . وكذا الملوك يَفضُلون الناس كلّ الفضل ، ولهذا كان خير الملوك الحكماء . والسماء هى التى تختار ملوكها على هذه الأرض . فالمُلك مؤسَّسة من عمل الله . ولكن المُلك قد يقع فى غير أهله ، فأنّى للناس أن يعرفوا أن مشيئة السماء وقعت حيث أرادت السماء ؟ يعرفون ذلك من أخلاق الملوك ، ومن تصريفهم أمور الناس . فمن حَسُن خلقا وعَدَل فى تصريفه الأمور فمن السماء مأتاه . ومن ساء خلقا ، أو حتى نقص حظه من الفضل ، فمن غير السماء مأتاه . والناس وحدهم مسئولون أن يتحققوا أنّ مشيئة الله نزلت حيث أُريد بها أن تنزل . والناس فى هذا لا يخطئون أبداً . « فالسماء ترى كما يرى الناس . والسماء تسمع كما يسمع الناس » . و « الحكومة من الله ، ولكن الحكّام من الناس » . فليس للحاكم فى ذاته حق سماوى . وليس للمَلِك حق قدسىّ . ولكنّ الحكم فى ذاته سماوىّ ، والمُلْك قدسى . والمَلِك الذى يحكم الناس بغير ما أراد الله ، ولا يصغِى إلى ما يُلقَى إليه من نصيحة وتحذير ، قد حقّ على الناس عزله . وعندئذ يُستحلّ دمه ، وعندئذ « لا يكون القتل قتلا » .

فهذا ما وجب للناس عند الملوك والحكام . وهذا هو حق تقرير المصير يضمه أقدم حكماء العالم فى يد الشعوب ، لأن الشعب « أخطر شىء فى الدولة » . وهذا هو رأى الشعوب وخطره فى ارتضاء الحكومة ورفضها ، هذا الذى نسمّيه فى عصرنا هذا بالرأى العام . وهذا هو الطريق مرسوماً إذا لم ترتضِ الشعوب ملوكها : نصيحةٌ فتحذير فإقالة . ثم يجىء بعد ذلك القتل ، وهو قتل حلال . ولم نسمع بدين حلّل قتلاً فى مثل ما حلّله هذا الدين . ولم نسمع بفلسفة برّرت مثلَ هذا العنف مثلَ هذا التبرير . وهى لم تبرره من أزمة نفسٍ طارئة ، أو لسانٍ ذربٍ شطّت به فى الخطابة عاطفةٌ جامحة . ولكنها تبرره من فكر وئيدٍ حاضرٍ غير شارد ، ومن بصر كالحديد يقطع فيُدمِى وهو مثلوج بارد . ومن ذا الذى يردّ الحاكم إذا جار ! ومن ذا الذى يردّ الملِك إذا الملك ظلم ؟ يجيب عن هذا مِنْشِع الحكيم — وهو خليفة كُنفج الحكيم ، جاء بعده بقرن ، أى قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون أو أربعة . عن هذا يجيب ثانى حكماء الصين فيقول : يتصدّى لرده أولاً فردٌ من أفراد الأسرة المالكة نفسها ، فيؤلّب عليه الأسرة لتعزله ، ثم هى تُجلس فى مكانه رجلاً منها أكثر حظاً من الفضيلة . فإذا هم لم يستطيعوا ، أو إذا هم لم يشاءوا ، وقع فرض

هذا على أعزّ من الوزراء ، ولو لم تكن له صلة بالملك أو نسب في بيته . فإن لم يكن هذا ولا ذاك وقع هذا الفرض على « وزير السماء » . وعنى بهذا رجلاً من رجال الشعب ، قد يكون وضيع النسب ، وقد يكون قليل الحسب ، ولكنه في موضعه الدنيء من الناس ، يحصّل من الفضيلة ما أمكنه التحصيل ، ويتحصّن بالحق ما أمكنه التحصّن ، ثم هو يتخلق في الناس بما يلفت إليه الأبصار ، ويؤلّف حوله الأنصار ، ثم هو يسير في جموعه حاملاً علماً ، لا علَم الثورة ، ولكن علم الحق والفضيلة .

رحمك الله أيها الشيخ الحكيم القديم . إن لم تكن هذه هي الثورة فكيف إذاً تكون ؟ !

فهذا حق النـاس عند الملوك . أما حق الملوك عند الناس من بعد ذلك فالطاعة التي لا تردّد فيها ، سواء الملوك أو لعالِمهم . فالحكومة في الكنفوشية لا تكون إلا لصالح الشعب . والشعب أسرة واحدة لها ملك واحد والأسرة لا تصلح أحوالها إذا فسد ربها ، ولكنها كذلك لا تصلح إلا بطاعة الأبناء لما يقضي به الآباء . والأسرة الشعبية آباؤها وأبناؤها من صنع السماء . فكالسماء يجب أن تجرى ، طيّعة لإرادة واحدة تضمن لها أن لا تصطدم أجرامها أو يختل نظامها .

فتلك هي الكنفوشية التي نصح بإدخالها إلى اليابان ربّ الأسرة الشوجنية الأخيرة فيما نصح بإدخاله من « العلم القديم » . وقد زعموا أنه أدخلها غير عالم بالذي فيها ، وما أحسب هذا هكذا . فأبرز ما في الكنفوشية نزعتها السياسية ، ورأيها في الحاكم والمحكوم . وأيياسو إنما كان يؤسس دولة ، ويطلب الوحدة لأمة مجزّأة مقطعة ، والكنفوشية فيها العون كل العون على هذه الوحدة ، وفيها الطاعة لربٍّ واحد . ولم يكن لأيياسو أن يفرض في نفسه نقصاً في فضيلة ، أو تقصيراً في صفات الملك . ثم إن الكنفوشية تطلب مَلِكاً واحداً ، أباً واحداً لأسرة واحدة . وكان هنا إلى جانب الشوجن الأمبراطور . ولكن مع هذا فالشوجن كان يستمد السلطة من الامبراطور شكلا ، وكان الامبراطور — وحوله من خفراء الشوجن ما حوله — لا يقول لا أبداً . فهو في أمور الحياة الواقعية كالصفر على يسار الواحد ، لا يجعله عشرة ، ولا يجعله اثنين ، وإذاً فهو واحد أبداً ، شوجنٌ واحد وحاكم واحد له الأمر كل الأمر كما تقضي بذلك الكنفوشية . والكنفوشية لم تصطدم مع حكم هذه الأسرة الشوجنية ما صلح حكمها ، في أول الأمر والحكم في عنفوانه . ولكن لما تضعضع السلطان واختل الزمان ، فعلت الكنفوشيةُ في حكومة الشواجن ما يفعله الماء في جدار البيت العتيق البالي ، فكانت عوناً كبيراً على انحلاله انحلاله أوائل انحلالها في منتصف القرن الماضي .

فهذا ثاني أسباب الثورة اليابانية ، ثورة عام ١٨٦٧ .

أما ثالث أسبابها فالشنتو ، وهو دين اليابان الأول ، وهو دين على ما وصفنا بدائي أولي ، لا يرجع الناس إلى عقل ، ولا يردّهم إلى عاطفة ، ولا يسنّ للناس في تخلّقهم ومعاشهم سنّة . ولكنه مع فقره في هذا ، وفي غير هذا ، قد أعطى اليابان ما لم يعطه دين آخر من الأديان : عزةً جنسيّة ليس فوقها عزة ، وحرارة وطنية لا تدانيها حرارة ، وحُبًّا قوميا لا يضاهيه حب أمة في الوجود . فهم أولاد السماء وسلالات الآلهة ، وليس على أرض اليابان رجل إلا وصعدّ نسبه وإن طال إلى إله أرض أو إله سماء . وأكبر آلهتهم هو ذاك الذي انحدر وينحدر من ظهور الأباطرة في تسلسل قديم لم ينقطع حبله إلى اليوم . فالأباطرة عندهم ملوك الأرض وقساوسة السماء ، والوطنية عندهم والدين سواء .

ودخلت البوذية اليابان ، وهى دين أغنى بالحكمة ، وأثرى بالعاطفة ، وأغزر بالجمال ، فأقبل عليه اليابانيون طوعاً ، ولكن قلوبهم لم تنفتح له انفتاحا ، حتى قالت البوذية : إن روح بوذا من أرواح الآلهة والأباطرة ، وإن هذه من تلك النُسخت فى تنقلها بين الأصلاب . واشتملت البوذية من بعد ذلك دينَ الشنتو ، وابتلعته ؛ ولكنها مع ذلك لم تستطع هضمه أبداً . فبقيت فى البوذيين عقائد الشنتو ، وبقى فيهم معابده ، وبقيت فيهم أعياده وشىء من مراسمه ، وبقى فيهم فوق كل هذا تلك الحرمة البالغة التى للأباطرة فى قلوب اليابانيين . حتى الشوجنة خافت تلك الحرمة ، وخشيتها ، وتجنبتها ؛ فابتدعت ذلك الحكم الثنائى العجيب ، الذى استمد فيه الشوجن سلطانه من ربّه الامبراطور ، ولكن من وراء جدران السجن العالية ، ومن فوق صفوف الجند الكثيفة الحافرة .

والذى قيّض للكنفوشية شوجناً يدخل كتبها وتعاليمها إلى اليابان فى أوائل القرن السابع عشر ، قيض للشنتو شوجناً مثله يحييها ويذكيها بعد ذلك بقرن واحد ، أى فى أوائل القرن الثامن عشر . وبإحيائها وإذكائها أحيي الحب الدفين الذى فى القلوب للأباطرة ، وأذكى النار التى انقدت لهم فيها ، والتى خبت حيناً تحت الرماد ولكنها لم تنطفئ أبدا . فلما ساء الحكم واختل الحال ، وجاء الغزو الأجنبى ينذر الأمة بضياع استقلالها ، وذهاب ريحها ، تطلعت الأبصار إلى الرب المنسىّ ، واتجهت الوجوه إلى القبلة المهجورة ، فسرتْ فى الناس الصيحة المشهورة : « كرِّموا الامبراطور » ، وفى سبيل « نكرمه » كانت الثورة ، واسترجع الامبراطور سلطانه .

أما رابع أسباب الثورة ، وآخرها ، فتلك الجزيرة الصغيرة التى اصطنعها اليابانيون اصطناعا ، للبرتغاليين أولا ، ثم للهولنديين من بعد ذلك ، ليتجروا عليها ، وعليها وحدها ، ووصلوا بينها وبين أرض اليابان بجسر مخفور يمنع الرائح عليه والغادى إلا بإذن مسطور . فعلى هذه الجزيرة ، وعليها وحدها ، أجاز القانون اتصال اليابانيين ، أعدادٍ محدودةٍ منهم ، بالهولنديين ، وعن طريق هذه الجزيرة لا عن سواها — وهى كالنافذة الصغيرة الواحدة فى البيت المظلم الضخم — أطلّ اليابانيون على أوربا ، علمها وطبّها وصناعتها ، وحضارتها ، ممثلةً جميعاً فيما جاء به هؤلاء الشُقر من غرب أوربا . وبالرغم من تحريم اللغة الهولندية على اليابانيين ، فقد تعلّمها خُفيةً منهم قوم كثيرون . وأباحوا تعليمها أخيرا للأطباء وطلاب الطب اضطرارا ، حتى يكسبوا عن أهلها علم الطب وفن العلاج . فدعى كل من أراد تحصيل هذه اللغة أنه إنما يطلب طبّا . فلما جاءت الثورة كان فى الأمة اليابانية نفر من طلائع النهضة الحديثة ، تأثروا بالحضارة الأوربية التى كسبوها استراقاً ، فكانوا عونَ الثائرين فى ثورتهم ، وكانوا عيونهم التى بها يهتدون .

أحمد زكى

صور تاريخية :

١ — سلطان العلماء

هذا لقب لقبه به تلاميذه لما رأوا من سعة علمه ، وعظمة خلقه ، فسار اللقب في الناس ، وأصبح في البلاد سلطانان : سلطان الدولة والأمراء وسلطان العلماء . وكان السلطانان أحياناً يتسجلان ويتصالحان ، وأحياناً يتصارعان ويتصادمان ؛ فيكون اصطراعهما منظر لطيف كمنظر الجيوش إذا تقاتلت ، والسباع إذا تصاولت ، والديكة إذا تهارشت . وأكثر ما يدعو النظر إلى الإعجاب إذا رأيت المحارب غير المسلح يغلب المحارب المسلح . وسلطان الدنيا بجنوده وبنوده يخضع لسلطان الدين ، وليس له جنود ولا بنود ، إلا قوة الخلق ، وقوة الحق ، وقوة اليقين .

عُمّر « سلطان العلماء » عمراً طويلاً عريضاً ؛ فقد عاش ثلاثة وثمانين عاماً ، والأعوام وإن اتحدت في الطول فهي تختلف في العرض . فهناك أعوام طويلة لا عرض لها ، وهناك أعوام طويلة عريضة ، وهناك أعوام عقيم ، وأعوام ولود . وأعوام « عالمنا » هذه أعوام خصبة طالما ولدت الأحداث العظام ، والخطوب الجُلَّى — فقد شاهدت دولة الأيوبيين في هرمها وآخر أيامها ، وشاهدت دولة المماليك البحرية في نشأتها وعزها ، وشاهدت بعض الحملات الصليبية على الشرق ومقاومته لها ، وشاهدت حملة التتار على الممالك الاسلامية واكتساحهم لها ، ووقوف مصر أمامهم تصد هجماتهم وتكسر شوكتهم ، وشاهدت سقوط الخلافة العباسية في بغداد وانتقالها إلى القاهرة .

ذلك كله شاهدته حياة « عالمنا » الدمشقي . فقد ولد سنة ٥٨٧ ، وتوفي سنة ٦٦٠ هـ . لقد نشأ في دمشق فقيراً يعمل بيديه ليكسب عيشه ويحصل قوته ، يبيت في مسجد دمشق إذ لم يجد له مأوى . وظل على هذا حتى صار شاباً ، ثم حبّب إليه أن يتعلم وهو كبير فقير ، فدارس العلم ، فسرعان ما نبغ فيه ، ولفت النظر إليه ، وجمع إلى العلم التصوف ، فيأخذ العلم عن شيوخه ، والتصوف من رجاله ، ويكسبه العلم سعة في عقله وصقلاً لذهنه ، ويفيده التصوف صفاءً في قلبه ، ونوراً في روحه وقناعة وطمأنينة في نفسه ، وزهداً في نعيم الدنيا ، وحباً لله وطلباً لرضاه ؛ فهو إذا تكلم رأيت علماً غزيراً من دراسته ، ورأيت إخلاصاً من تصوفه ، ورأيت هيبة وجلالاً ، ونفوذاً لكلامه إلى قلوب سامعه من قوة يقينه وصفاء روحه . وإذا بعالمنا « عبد العزيز بن عبد السلام » أو « عز الدين بن عبد السلام » الذي كان يعمل بيديه نهاراً ، ويفترش أرض المسجد ليلاً ، خطيب الجامع الأموي وإمامه ، وقبلة الناس ومنارهم ، ومعقد رجائهم .

امتد به نظره بعد أن نضج عقله ، فرأى حال الدولة تدعو إلى الأسى ؛ هذه الأسرة الأيوبية تقسم أبناؤها المملكة . ففرع في مصر ، وفرع في دمشق ، وفرع في حلب ، وفرع فيما بين النهرين ، وفرع في حماه ، وفرع في حمص ، وفرع في جزيرة العرب ، وبين بعضهم وبعض إحن وعداء ، وحزازة ودماء . والصليبيون على الأبواب ، والتتار يتحفزون الوثوب ولا قبل لهم بذلك كله إلا أن تذهب حزازاتهم ، وتتوحد كلمتهم ، وتصفو قلوبهم ، ويُعدّوا ما استطاعوا من قوة — فاتخذ عالمنا هذا منهجه في الخطب على المنبر ، وفي الوعظ ، وفي نصح الأمراء .

فهاهو يدخل على الملك الأشرف موسى بن العادل بدمشق وهو يتأهب لغزو أخيه السلطان الكامل في مصر ، فيقول له : هذا أخوك الكبير ورحمك ، وأنت مشهور بالفتوح والنصر على الأعداء ، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين ، فخير لك ألا تقطع رحمك ، وأن تتوجه إلى نصر دين الله وإعزاز

كلمته ، وأن تحوّل وجهتك فى مقاتلة أخيك إلى مقاتلة أعداء الله وأعداء المسلمين ، وأن تتقرب إلى الله قبل ذلك بإصلاح داخل مملكتك ، فتبطل المكوس ، وترفع المظالم ، وتمنع الخمور والفجور . فيصغى السلطان إلى نصيحته ويعمل بها . ويقول له : جزاك الله خيراً عن إرشادك ونصيحتك . ثم أصلح ما فى الداخل وحوّل وجهته إلى الخارج ، وقدّم السلطان للشيخ ألف دينار يستعين بها على شئون الدنيا ، فردها الشيخ فى لطف وقال : إن هذه نصيحة لله وللدين ، فلا أكدرها بشىء من الدنيا ، وذاعت نصيحة الشيخ وزهده فى المال ، فزاد مقامه علواً ومكانته رفعة .

* * *

لكن فى كل عصر سخافات تستوجب الضحك ، لولا أنها تحدث فى مأتم ، فهؤلاء ضيقو العقول من الحنابلة — والدولة كلها معرضة لخطر الغزو من عدوين لدودين قويين : وهما التتار والصليبيون — يعيدون قصة خلق القرآن والكلام فيها كما كانت أيام المأمون والمعتصم والواثق ؛ فهم يزعمون أن كلام الله القديم هو ما نقرؤه بألسنتنا ونكتبه بمدادنا ، ونحمله فى أوراقنا ، وترمقه عيوننا .

والأشعرية من أهل السنة يرون أن كلام الله الأزلى القديم ليس بحرف ولا صوت ، وإنما ألفاظنا وكتابتنا ومصاحفنا دلالة عليه ، فيجب احترامها لدلالتها على كلامه ، كما يجب احترام أسمائه لدلالتها على ذاته .

وتقوم الثورة فى هذا بين الحنابلة والأشعرية ، ويتبادلون السب والضرب — فهنا فى دمشق مجادلات حارة ومناقشات حامية : هل الحروف والأصوات كلام الله ؟ وهناك على مقربة منهم فى صفوف الصليبيين دعوة حارة أخرى لتنظيم الأدوات ، وإعداد المعدات ، وتوحيد الصفوف : هنا كلام وخصام فى الكلام ودعوة إلى الانقسام ، وهناك عمل وإعداد وسيوف وقنابل ودعوة إلى الوئام .

ويشتد النزاع بين الحنابلة والأشعرية : المكتوب والمقروء كلام الله — ليس المكتوب والمقروء كلام الله .

كلمات يعلو بها صوت الناس فى المساجد والشوارع والبيوت ، ويتزعم فريق الأشعرية عالمنا . وأعوان السلطان منقسمون كذلك إلى قسمين ، والسلطان يسمع من هؤلاء اتهاما ومن هؤلاء اتهاما : هؤلاء يتهمون الأشعرية بأنهم يستهينون بالمصحف ، وهؤلاء يتهمون الحنابلة بأنهم مجسمة . ويعكف العلماء من هؤلاء وهؤلاء على تأليف الرسائل واستنباط الأدلة . وأخيراً يحاول السلطان بينهم فيأمر بقطع الكلام فى هذا الموضوع بتاتا ، ويأمر الشيخ عز الدين بأمور ثلاثة : ألا يفتى ، وألا يجتمع بأحد ، وأن يلزم بيته . فلما جاء الملك الكامل من مصر وسمع ما جرى قال للملك الأشرف : ما فعلت أكثر من أنك سويت بين أهل الحق والباطل ، وحرضه على القول برأى الأشعرية ونصرة الشيخ عز الدين . ففعل وشدد على الحنابلة فسكتوا ، وانتهت المشكلة بعد أن أخذت من قوتهم وأكلت تفكيرهم ، وعاد عز الدين إلى مجده وسلطانه .

* * *

أخذ الشيخ يدعو دعوته الأولى إلى أن يتحد سلاطين الأيوبيين وتتحد كلمة المسلمين ، ويخطب فى ذلك على منبر دمشق ويختم خطبته — فى العادة — بقوله : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً ، تُعز فيه وليّك ، وتُذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » والناس وراءه يبتهلون ابتهاله ويدعون بدعائه حتى ترتفع أصواتهم إلى عنان السماء .

وكان يقول : « كل جندى لا يخاطر بنفسه فليس بجندى » و « المخاطرة بالنفوس مشروعة لإعزاز الدين » و « ينبغى لكل عالم إذا أُذل الحق وأُهمل الصواب أن يبذل جهده فى نصرهما ، ومن آثر الله على نفسه آثره الله ، ومن

طلب رضا الله بما يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن طلب رضا الناس بما يسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، وفى رضا الله كفاية عن رضا كل أحد.

« فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب »

هذا بعض ما كان يقوله الشيخ. ولكن من كان يظن أن هذا القول الصريح الذى لا مجمجة فيه ولا إبهام يؤول بأنه يريد به نصرة بعض الأيوبيين على بعض؟ ومن كان يظن أن هذه الدعوة التى يبذلها الشيخ إلى الاتحاد تنتكس ولا يستجاب لها، وتنتهى بأن الملك الصالح إسماعيل يصالح الصليبيين على أن يسلم لهم صفدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين ليتجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب؟ ومن كان يظن أن الشيخ لا يُسمع إلى دعوته، فيرى المسلمين فى دمشق يبيعون السلاح للصليبيين ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين؟

لقد صرخ الشيخ من أعماق قلبه مستنكراً هذه الأحوال، مستغيثاً بالله من هذه المخازى والأهوال. فاعتقل الشيخ وعذّب، فما بالى باعتقال ولا بعذاب.

وجاء رسول من قبل الصالح إسماعيل يحتال عليه كما يحتال الشيطان ويوسوس له ويخوفه ويمنيه؛ وأخيراً يقول له: « ليس بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وأكثر منها إلا أن تطأطئ رأسك للسلطان وتقبل يده ».

هاج الشيخ وغضب واحمر وجهه، وصاح فى الرسول: « يامسكين، والله ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده. يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به ».

هؤلاء ملوك المسلمين فى الشام يعبثون بحقوق المسلمين، ويسلمون للصليبيين الحصون والقلاع، ويسمحون لهم بشراء السلاح من بلادهم اليوم ليحاربوهم به غداً، والشيخ فى اعتقاله فى خيمته، يحز فى قلبه الألم مما صار إليه حال المسلمين، فيعكف على القرآن يتلوه وعلى العلم يدرسه. ويمر الملك الصالح إسماعيل الذى فعل تلك الأفاعيل مع ملك الفرنج من الصليبيين على الشيخ فى خيمته، فيفتخر الملك ويزهى بعمله ويقول:

« هذا أكبر قسوس المسلمين، اعتقلته لأنه أنكر علىّ تسليمى لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة وعن مناصبه، ثم أخرجته من دمشق، وأبعدته هنا فى بيت المقدس، كل هذا لأجلكم وحباً فى رضاكم ».

ملك الفرنج — لو كان هذا قسيسنا لشفعنا به وتبركنا بماء طهوره.

وانتصرت العساكر المصرية فأطلق سراح الشيخ، فأبى أن يكون فى دمشق، حيث رأى ما رأى.

وفى سنة ٦٣٩ رؤيت قافلة فيها شيخ أبيض اللحية مهيب وقور، يتجاوز الستين قليلا، ومعه صديق له يبدو عليه أنه مصرى هو ابن الحاجب(١) وفيها أسرتهما وأمتعتهما وأتباعهما، تجتاز بلاد الشام قاصدة مصر.

(يتبع) أحمد أمين

(١) ابن الحاجب: هو العالم الكبير والمؤلف المشهور فى النحو والصرف والأصول.

يوم بين المجانين

للقاضي الفاضل صاحب الإمضاء

لم أكن أعلم عن المجانين وأطوارهم أكثر مما علمني جار لنا كان مسكنه يواجه المنزل الذي قضيت فيه أيام طفولتي. فقد كان هذا الرجل طبيباً وقوراً، هادئاً رزيناً. ولكنه كانت تغلب عليه مسحة من الكآبة في أكثر الأوقات. وأذكر أني لم أكن أراه حين يخرج من منزله أو يعود إليه، إلا وهو يمشي مكباً على وجهه وقد استغرقه تفكير عميق . . . . ثم غاب عني فجأة. وانقطعت رؤيتي له. فلم أعد أراه في خروجه أو دخوله. ولم أصادفه إلا بعد انقضاء أكثر من ستة أشهر على هذه الغيبة الفاجئة. وكان حين رأيته في هذه المرة يقف فوق سطح منزله وهو بلباس النوم، عاري الرأس، منفوش الشعر، طويل اللحية والشاربين، فأنكرته حين رأيته على هذه الصورة. ولما استفسرت عن أمره قيل لي: إنه أصيب بالجنون، فتقاعد بطبيعة الحال عن عمله ولزم منزله. وأصبح لا يسمح له بترك غرفته إلا ليقضي فوق السطح ساعة أو نحوها ثم يعود إلى محبسه.

وكثرت مراقبتي له بعد ذلك وأنا مدفوع بحب الاستطلاع. فكنت أصعد إلى سطح منزلي فألوذ بمكان أرصد منه حركاته وسكناته. ولكنه فيما بدا لي لم يرقه مني ذلك. فإنه أفسد عليّ مشاهداتي بأن تصداني بالطوب كلما وقعت عينه عليّ ألقى عليّ واحدة. ومن أسف أنني كنت أشركت في أمري معه أخي الصغير. ولعله لم يحسن التطلع إلى صاحبنا ذات يوم، فأصابه بحجر في رأسه، فكان ذلك آخر عهدنا بالسطح، إذ حرم علينا الصعود إليه حتى يلطف الله بجارنا ذاك.

وبقيت منذ ذلك الحين أحسب المجانين كلهم على غرار صاحبنا — قوما طوال اللحى، حمر العيون، منفوشي الشعر، يرجون الناس بالحجارة. وكنت أتصور «مستشفى المجاذيب» تحت هذا التأثير في صورة معتقل به حجرات صغيرة كثيرة وضعت على نوافذها قضبان الحديد، وقد أودع في كل حجرة واحد من هؤلاء «المجاذيب»، ولعل بعضهم مشدود الوثاق، أو لعله يرتدي قميص الأكتاف — كما يسمونه — لتمتنع عليه الحركة فلا يؤذي نفسه، ولا تتسنى له فرصة إلحاق الأذى بغيره. وكنت أقول لنفسي: إن كان صاحبنا الطبيب على شراسة سلوكه قد سمح له بالبقاء في منزله، فإن الذين قضي عليهم بأن يودعوا في المستشفى لا بد أن يكونوا أكثر منه شراسة وأشد خطراً. وقد بقيت على هذه العقيدة إلى أن أتيحت لي منذ أيام فرصة زيارة «مستشفى الخانكة»، فإذا الحقيقة الواقعة في واد وتلك الصورة العجيبة التي مثلتها لنفسي في واد آخر.

* * *

استقبلنا المدير في غرفته قبل أن نأخذ في الطواف بالمستشفى. وأراد أن يمهد لزيارتنا بحديث يعرفنا فيه بنزلاء مستشفاه وبأمراضهم وبطرق العلاج التي تتبع معهم. وكأنه كان على علم سابق بتلك الصورة الخاطئة التي رسمناها لأنفسنا عن مرضى العقول، فبدأ حديثه معنا بقوله:

«لا تنتظروا أن تجدوا بين نزلاء دارنا كثيرين ممن يتركون لعابهم يسيل على صدورهم وهم زائغة أبصارهم، متقلصة جوارحهم. فإن أكثر من ٩٠٪ من «زبائننا» يكادون يكونون كغيرهم من الخلائق التي تسعى في أرض الله الواسعة خارج المستشفى».

ثم قال باسما: «وإني لأخشى أن يكون ٩٠٪ أيضا ممن يعيشون خارج المستشفى هم أولى من بعض نزلائه بالإقامة فيه. فإن الأمراض العقلية متعددة الصور والدرجات. وقل أن ينجو منها إنسان في ظروف الحياة الحاضرة.»

وقد لحت بعض زملائى فى هذه الزيارة يتبادلون النظرات عقب هذا التصريح . ولاح عليهم إحساس من يرى نفسه قد وقع فى فخ . ولم يفت المدير هذا المعنى . فتدارك إخواننا بقوله : إنه لا بأس عليهم لأن المستشفى مكتظ بنزلائه ، وإنه لا توجد به محلات لنزلاء جدد . وإنهم يستطيعون على أى حال أن يثقوا منذ الساعة أنهم سينصرفون بسلام عقب انتهاء الزيارة !

***

وكان أهم ما عرفناه من حديثنا مع المدير أن « مستشفى الخانكة » يضم أكثر من ألفى مريض فى الوقت الحاضر ، وأنهم كلهم من الذكور . وأن هناك فى العباسية مستشفى آخر خصص للنساء ، ولكن به جناحاً أعد لإيواء المرضى الذكور ، الذين يبدون الملاج على نفقتهم الخاصة ، وأن أمراض الجنون تنقسم بالاختصار إلى قسمين رئيسيين : الأول — يرجع سبب المرض فيه إلى عاهة عقلية تترك المريض معتوهاً قصير الإدراك بحكم خلقته ، والثانى — يرجع السبب فيه إلى علة نفسية استحالت إلى مرض عصبى . وإنه طبقاً لنظرية فرويد يجدر بالأمراض العصبية أن تسمى أمراضاً عصبية جنسية ، لأن السبب الأساسى فيها يرجع إلى عوامل نفسية لها اتصال وثيق بالغريزة الجنسية . وإنه نظراً لما يصيب هذه الغريزة عادة من عوامل الكبت الذى تقتضيه ظروف الحياة الاجتماعية الحاضرة وآدابها ، فان الصدمة العصبية التى تحدث بسبب هذا الكبت المستمر يكون لها أكبر الأثر فى إحداث الأعراض المرضية ، فيما لو خابت لدى الانسان وسائل التصعيد والتسامى بعواطفه المكبوتة . وتوجيه نشاطه إلى نواح أخرى تخفف بعض الضغط الواقع على نفسه .

وليس من شأننا فى هذه الكلمة أن نسترسل فى الحديث من « الجنون » من ناحيته العلمية ، فان البحث فى ذلك لا يخلو من تعقيد . وليس المقام على كل حال مقام دراسته . ولنكتف من حديث هذه الزيارة بأثبات ما شاهدناه من شئون بعض المرضى لنعمل على تصحيح تلك الصورة الخاطئة التى أثبتناها فى مستهل هذه الكلمة ، حتى يشاركنا الآن فى الانتفاع بتصحيحها من كان يشاركنا أولاً فى اعتناق خطئها .

***

يقيم نزلاء « مستشفى الخانكة » فى عنابر واسعة يتسع الواحد منها لبضع عشرات من المرضى . ولولا أن يقال للإنسان إن هؤلاء الناس مرضى بعقولهم ما أدرك أنهم كذلك . وقد لقينا كثيراً منهم فى يوم زيارتنا وتحدثنا إلى كثير ، ومع ذلك لم نستطع أن نلمس فى معظم الحالات أين يقع جنون هؤلاء القوم . فلما سألنا فى ذلك قيل لنا عن بعض من تحدثنا إليهم إنهم من مدمنى المخدرات الذين تأثرت قواهم العقلية بفعل ما كانوا يتعاطونه ، وإنهم الآن آخذون فى التحسن بحكم امتناعهم عن تلك « المكيفات » . وقيل عن بعضهم إلا جنونهم يأتى فى صورة نوبات ، وهم فى غير هذه النوبات لا يمكن تمييزهم عن غيرهم ممن لم تختلط عقولهم . ثم قيل لنا عن الباقين إن الانسان يحتاج إلى أن يطيل التحدث إليهم ليكشف عما فى عقولهم من خلط ، فأحببنا أن تكون لنا جلسة مع فريق من هؤلاء ، فأعدوا لنا خمسة منهم قضينا معهم نحو ساعة سمعنا فيها حقاً أعجب الأحاديث .

***

كان الخمسة يجلسون على دكة قريبة من المكتب الذى جلسنا نحن إليه . فنادى الطبيب الذى كان يرافقنا أول الخمسة بقوله :

— تفضل يا « معالى الباشا » !

فأقبل علينا رجل طويل القامة فى حوالى الستين من عمره ، حسن الهندام ، له نظرات رزينة هادئة ،

جلس في تؤدة على المقعد الذى أُعِدّ له بجوار مكتبنا ؛ وبعد أن أدار بصره فينا لحظة ، تكلم بلغة عربية فصيحة ، وبنفس الألفاظ التى أثبتها هنا . قال :

« إن (الوظيفة) أمانة وتكليف ، فمن أحسن القيام عليها فهو بها جدير ، ومن لم يحسن سياستها فقد وجب إقصاؤه عنها ، وتسليمها إلى أهلها . . . . »

وكان معنا صديقٌ مجهول لم يستطع الصبر على ما سمع من « معالى الباشا » ، فهتف قائلا : إن هذا الكلام لا يصدر إلا من عاقل حكيم . فأشار له الطبيب أن انتظر .

ولم يغضب « الباشا » من هذا الاعتراض ، فاستمر فى حديثه قائلا :

« ولقد علمت أن هيأة كانت بوضع نظام كامل لاصلاح هذا المستشفى . وإنى أنتهز هذه الفرصة لأقترح أن تقبلونى عضواً من أعضاء الهيأة التى كانت بوضع نظام كامل لاصلاحه ، لخبرتى بشئون الادارة الداخلية العامة ، حرصاً على وقت هذه الهيأة من أن يضيع بالركون إلى أقوال المضللين من الموظفين والأطباء الذين لا يزالون يوجدون فى هذا المستشفى إلى الآن بعد الذى قضى عليهم فيه سجنا وتشغيلا وتعذيبا وآلاما وهماً وحزناً بالدعوى عليهم بالمرض العقلى ظلما وزورا ، وحرصاً على ما لهم من نقوس فى الخارج وأموال ، وحرصاً على مال الحكومة أيضا الذى خصص صرفه له من ميزانية كل عام باعتباره مستشفى حقيقياً ، ولمرضى بمقولهم حقيقة ، وهو ليس كذلك إلا شكلا ، أما موضوعاً فهو محل لصيد المال وأهله لاتفاق مع المديرين والمحافظين على حساب الحكومة .[1] »

ولم يكد يصل الرجل فى خطبته إلى هذا الحد حتى كان بالمور دورى فى نفاد الصبر ، لا دور صديقنا المجهول . فنظرت إلى الطبيب قائلا :

— وما مصلحة المستشفى فى الاحتفاظ بمثل هذا السيد؟

فأومأ إلىّ وأسر فى أذنى أن هذه الخطبة قيلت قبل اليوم أكثر من مائة مرة ، وأن الرجل أوشك أن يكشف عن نفسه . وطلب إلىّ الصبر قليلا حتى نصل إلى نهاية هذا الخطاب . فاضطررت إلى الصبر . ولكن علم الله أنه كان صبراً على مضض .

واسترسل الباشا فى حديثه فقال :

« وفى علم الخاص والعام أنى عينت مديرا لهذا المستشفى فى أول سنة ١٩٣٦ ببراهين وأدلة دلت على دراستى الفنية الشاقة الخطيرة . وأنى انتخبت مديرا للغربية ثم محافظا لمحافظة الغرب سنة ١٩١٦ انتخاباً صادقت عليه هيأة محكمة جنايات مصر والقليوبية المتنقلة يوم السبت ٢٦ يناير سنة ١٩١٧ . وأنى طلبت إسناد وزارة الصحة إلىّ ووزارة الأوقاف الأهلية ببراهين وأدلة مستندة بمؤهلات كافية . وأن المرحوم حضرة صاحب الفخامة اللورد اللنبى التجئ لرياسة مجلس الوزراء الادارية ، ونودت من جانب السراى أن أذهب إلى وزارة الداخلية . . . . »

وهنا تنفست أنا وإخوانى الصعداء . فقد أدركنا أننا وصلنا أخيراً بحمد الله ، وأن جنون صاحبنا كان من العمق بحيث كان ينبغى لنا أن نصبر عليه حتى يرفع كل هذا الركام عن طبقاته الأولى . . . .

ورأى الطبيب أن يفسح المجال لغيره فى الكلام ، فاستأذنه فى الاكتفاء بما قال ، فطلب الرجل أن يسمح له بتقديم باقى كلامه فى عريضة يقدمها لنا فسمح له . وهنا انسحب « معاليه » وأكب على مقعده يحرر هذه العريضة فى حماسة ظاهرة . ومال علىّ الطبيب قائلا : لقد أحصينا العرائض التى حررها هذا المريض منذ دخوله المستشفى فاذا هى ١٤٧٩٥ عريضة ، وكلها لا تخرج عن معنى ما سمعتموه الآن .

وقد تبين لى من الاطلاع على تاريخ هذا المريض أنه

(١) سلمنى « معالى الباشا » ورقة قبل مغادرتى المستشفى ، فلما قرأتها وجدتها ترديدا لنفس الخطبة التى سمعناها . ومن هذه الورقة نقلت هذه الكلمات .

كان موظفا كبيرا بوزارة المالية، ولكنه انصرف فجأة إلى تقديم الشكاوى فى حق رؤسائه ومرءوسيه على السواء يتهمهم بالإهمال وبالرشوة وما إلى ذلك، حتى انتهى أمره إلى دخول المستشفى حيث ظهرت عليه «أعراض» هذه الوزارة الباطلة التى ظل يعانى سكرتها طوال العشر السنوات الأخيرة.

٢ — إبراهيم الأول بن فتح الله باشا :

نادى الطبيب بعد ذلك على المريض الثانى لمجلس حيث كان يجلس زميله «الباشا» وكنا نظن أن الوزارة أو رياسة الوزارة على الأكثر هى كل ما تصل إليه مطامع سادتنا أولئك، فإذا بصاحبنا الجديد يعرفنا بنفسه على أنه إبراهيم الأول بن فتح الله باشا، وأنه أنشأ بأمره «الملك» جميع الطوابق القائمة على ميناء الاسكندرية! وظل يتحدث بعد ذلك حديثا طويلا عن الخيانة التى وقعت على «شخصه الملكى» وكانت سبب نكبته والقبض عليه وإدخاله فى المستشفى بعد أن ادعى عليه خصومه أنه من المجانين ليخلو لهم الطريق...

فسألنا الله له اللطف واستأذناه فى إخلاء مكانه لمن بعده. فودعنا الرجل وداعا كريما وانصرف ليتخذ مكانه إلى جوار زميله «الباشا» من جديد.

٣ — عبد العزيز. س. أفندى :

كان حديث هذا السيد يخالف حديث من سبقوه. وأغلب الظن أن إقامته فى المستشفى لن تطول إلى ما بعد هذا الشهر الحالى. فإن حالته لم تكن حالة جنون بمعناها الأخص. ولكنها كانت نتيجة عدة صدمات عصبية حادة رواها لنا المسكين بقوله : إنه كان مدرسا للرياضة فى إحدى مدارس القاهرة، وإنه وقعت له سلسلة كوارث عائلية هدمت أعصابه وأطارت النوم من جفنيه. فأصابه أرق مزمن أدى به إلى المستشفى. وكانت أولى هذه الكوارث وفاة والده م. س التاجر الشهير وضياع أمواله بعد وفاته — ثم وفاة زوج كريمته وتركه لها هى وأطفالها الصغار فى حالة من البؤس يرثى لها — ثم وفاة زوجته هو وإحساسه بالفراغ التام يحيط به من كل جانب بعد وفاتها — ومحاولته بعد ذلك أن يسد هذا الفراغ بزيجة جديدة ولكنه لم يوفق فيها. فأصابه من نكد الزوجة الجديدة ما أزرى بكل ما أصابه من فقد والده وزوجته الوفية الأولى.

قال الرجل : «وكان لى أخ شقيق أتم دراسته فى أوربا. فكنت أجد فيه الركن الركين الذى يعصمنى من الانهيار على أثر ما كان يصيبنى من هذه الكوارث — ولكنه توفى هو الآخر. فتداعت أعصابى لموته. ولم يبق لى فى هذه الدنيا من أعتمد عليه أو أستظل بظله. وغشيتنى الدواهى. فلم أفق لنفسى إلا وأنا فى هذا المستشفى. وقد تحسنت حالى الآن ولله الحمد، فأصبحت أنام فى الليلة الواحدة نحو ثمانى ساعات. وليس يشغل بالى الآن إلا بناتى، فإن لى خمس بنات لم يبق لهن فى هذه الدنيا غيرى».

وقد أدركتنا رقة حقيقية لحال هذا الرجل وسألنا الله له الشفاء والسلام وحسن الختام. ولم ير هو أن يرد على تحيتنا له إلا بقوله : «ربنا يحفظكم لأولادكم، ويرجعكم لهم بالسلامة».

وكان لهذا الدعاء معناه من رجل لا يشغل باله إلا بعده عن بناته، وإشفاقه على مستقبلهن من بعده !

٤ — سعادة المدير :

ونادى الطبيب بعد ذلك على المريض الرابع بقوله : «تفضل يا سعادة المدير»

فأقبل رجل ربعة عريض الجبهة، ذكى الملامح، علمنا من أمره أنه قصد ذات يوم إلى محافظة القاهرة، حيث طلب إلى المختصين هناك أن يقوموا بتنفيذ عقد «شرائه

« لمستشفى المجاذيب » ؛ فما كان من الحافظ إلا أن أمر بإرساله إلى المستشفى فى صحبة أحد الجنود . ففسر هو ذلك على أن هذا الجندى هو الذى سيقوم بإجراءات التسليم الرسمية . ولكنه ما كاد يدخل المستشفى حتى رأى نفسه يعامل معاملة باقى نزلائه . فضج لذلك وثار ، وظل على ثورته هذه حتى أذن الله بنقل المدير السابق ، فاطمأن قلبه ، لأنه كان يعتقد أنه لم يلق هذه المعاملة فى عهده إلا لما كان يخشاه هذا المدير من منافسة صاحبنا له فى سلطته . واستقبل المدير الحالى راضياً مسروراً ، وسلمه ورقة كتب فيها إنه يأذنه فى صرف ٣٥ ألف جنيه من البنك الأهلى على سبيل الهدية للاعراب عن رضائه عنه . ولما قبل المدير منه هذه الهدية شاكراً وهم بالانصراف ، استدعاه وسحب منه الورقة ، وأضاف عليها أنه يأمر أيضاً بخمسة ملايين سجارة لجنود الدولة العلية !

٥ — س . م .

أما هذا المريض الخامس فكان مرضه من نوع يخالف مرض زملائه ، إذ كان مصاباً بما يسمونه « الشلل الجنونى العام » . ومن أعراض هذا المرض ثقل فى اللسان وفى التفكير ، وفى حركات الجسم ، وهو ينتهى عادة بالموت ، ومنشؤه الأمراض الزهرية . غير أنه من الممكن شفاؤه إذا ما تداركه العلاج فى مراحله الأولى . وقد شوهد أن المريض بهذا الشلل إذا أصيب بحمى تتحسن حالة مرضه العقلى . فكان ذلك باعثاً على اتباع طريقة جديدة فى العلاج ، وهى تلقيح المريض بميكروب الملاريا الحميدة ، فتصيبه حمى صناعية حميدة العاقبة تكون سبباً فى رفع حرارته عدة أيام ، تقضى فى خلالها هذه الحرارة على جرثومة مرض الزهرى المستقرة فى الأعصاب ، والتى لم تكن تبلغها مادة الأدوية التى كانت تستعمل عادة فى معالجة الزهرى ؛ وبذلك يزول سبب الشلل فيتماثل المريض ، وتعود إليه صحته .

وهكذا يذيق الله بعض الجراثيم بأس بعض ، كما يفعل بالأفراد ، وكما يفعل بالأمم : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » — صدق الله العظيم .

ح . ج .

الحجاج وتعدد الشخصية

في العدد (١٧٠) من الثقافة كتب الأستاذ محمد خلف الله عن الحجاج ، وعرض لما يبدو في شخصيته من تناقض ظاهري ، إذ « جمع في شخصيته بين القسوة والفتك وإراقة الدماء من جهة ، وبين التدين والوعظ وقراءة القرآن والاقتباس منه من جهة أخرى » .

ولقد أصاب الأستاذ حين رفض تفسير الحسن البصري الذي ذهب إلى أنه « يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله » ، مشيراً إلى أنه لا يصدر في وعظه عن صدق شعور ، فالحق أن خطابته الدينية أشد حرارة وأبلغ أثراً من أن تكون تكلفاً وادعاءً ، وإنما هي فيض نفس تؤمن كل الايمان بما تقول ، فتملك قوة التعبير وقوة الايحاء .

وقد فرض الأستاذ لتفسير تلك الظاهرة فرضين يقبلهما : الأول أن الحجاج « كان ذا شخصيتين مستقلتين تحيا كل منهما حياتها الخاصة » بمعنى أنه مثل قديم لشخصية « دكتور جيكل ومستر هايد » . والقد حرّكني هـذا الفرض ودفعني لكتابة هذا المقال ، فهو ليس بالفرض الهين ، إذ أنه يعرض لمشكلتين خطيرتين : إحداهما وحدة النفس الانسانية ، وهل يمكن أن توجد في الهيكل الواحد شخصيتان منفصلتان بل متناقضتان . والمشكلة الأخرى هي مشكلة فهم الأدب « كنقد للحياة » ، لقد من الخير أن نتبين إلى أي حد يطابق الواقع أو يعدوه ليعيننا على فهمه .

والذي أراه في موقفنا من الأدب أن ليس لنا أن نفهمه على ظاهره ، وأن نرى في أداة التعبير جوهر الفكرة ، وليس لنا أن نطالبه بأن يعرض لنا الحقيقة عارية ، الحقيقة كما تنقلها الآلة المصورة ، فانه حينئذ لا يكون قد أدى رسالته ، بل لا يكون أدباً على الاطلاق . إنما الأدب يصور ما نشاهده كل يوم دون أن نراه ، أو يسرع في عرض ما يمر بطيئاً متباعداً مفككاً ، فندركه وحدة متفاعلة متماسكة ؛ أو يبطىء في تصوير ما يمر سريعاً متلاحقاً حتى ليفلت منا ، فنراه واضحاً جلياً مفصلا ؛ أو هو يتسلل إلى النفوس ويشق الحجب ويطلعنا على الأسرار والدوافع التي لا تدركها كل نفس سوى نفس الأديب النافذة . وأخيراً هو قد يعمد إلى التجسيم والتهويل ليبرز الفكرة ويطبع الأثر . وليس لنا أن نأخذ حديثه على أنه الحقيقة بذاتها ، بل له الرمز ولنا ما وراءه ، له أن يعمق الألوان حينما أراد ، ويركز الأضواء حيثما ابتغى ؛ له أن يفصل بين ما تداخل وتراكب حتى يقيم من أجزائه وحدات مستقلة تلوح مبارزة للعيان فتستحوذ منا على الانتباه ، وتستثير التجاوب والتأثر .

وهل رأينا أحداً في الحياة الواقعة يتحدث إلى نفسه ؟ ولئن تحدث فبغير كلمات ، أو هي كلمات لا تهمس بها شفة ولا تسمعها أذن ؛ ولكن في المسرح ، أما ترى الممثل يطالعك بخطرات فكره وخلجات نفسه في مناجاة علنية مسموعة له ولك ولآلاف الشاهدين ؟ وما ذلك إلا ليجسم لك الواقع فيستثير وجدانك ويطبع أثره في نفسك . فالابراز والتشخيص — وإن اختلفت طرقهما — من وسائل الأدب التي لا غنى عنها ، بل من وسائل الفنون جميعاً .

وعلى ضوء هذه الحقائق أحسب أن مؤلف « دكتور جيكل ومستر هايد » لم يقصد إلى أن النفس الانسانية يمكن أن تحل بها شخصيتان « مستقلتان تحيا كل منهما حياتها الخاصة » . بل أظنه رأى ما في جوانب النفس الواحدة من تباين قد يبدو تناقضاً ، ورأى كيف يصطرع الخير والشر ، وكيف يتعاقبان على الانتصار حتى تكون لأحدهما الغلبة في النهاية ؛ فأراد أن يجسم تلك الحقيقة ، فاصطنع للرجل شخصيتين يلبس إحداهما فيصير مارداً شريراً ، ويلبس الأخرى فيصبح خيراً رحيماً . وليس أدل على أنه إنما قصد إلى التجسيم فحسب من أن المؤثر في

تحول رجله لم يكن تفكيراً يطوف بخلده أو عاطفة تعتلج بها نفسه أو أي مؤثر من المؤثرات الانسانية ، بل سائلا كيمياوياً يفعل فعله السحري العجيب ! فهو قد سار مع فكرته إلى النهاية ، إذ رمز لتلك النوازع التي تميل بالنفس نحو الخير طوراً ونحو الشر تارة بهذا السائل الكيمياوي ، كما رمز للقوتين اللتين تسيطران على النفس بهاتين الشخصيتين المختلفتين . فالكاتب إذاً قد قصد إلى تقلب النفس الواحدة وترددها بين الخير والشر تبعاً للنزعات والأهواء المختلفة ، لا إلى وجود شخصيتين متمايزتين تفعل إحداهما الخير على الدوام ، وتفعل الثانية الشر على الدوام ، وتحيا كل منهما حياتها الخاصة ، لا تؤثر ولا تتأثر .

وفي الحق أن النفس الانسانية لأدق وأكثر تعقيداً من أن توجد فيها مثل هاتين الشخصيتين المنفصلتين كل الانفصال ، إذ هي كالجسم الانساني ذاته ، كائن مركب معقد ، ذو غدد وأجهزة لا حصر لها ، يقوم كل بوظيفته الخاصة ، ولكنه ليس بمعزول عما سواه ، بل يراه يتفاعل وينفعل ، ولا يستطيع الاستقلال بمهمته ، كما أنها ليست من البساطة بحيث تظل ساكنة جامدة لا تتحول ولا تهتز أمام الأهواء والأعاصير . فما من نفس تطمئن إلى حال واحدة ، وما من نفس تثبت على إيمان لا يساوره شك ، أو شك لا يداخله يقين ، بل هي نزعات متشابكة تنقلها من حال إلى حال في صلات دقيقة خفية ، وذلك دأبها أبداً ما دامت لها صفة الحياة . ولقد دعا موسى ربه من قبل : « قال رب أرني أنظر إليك » أو لم يكن من المؤمنين ! ولكن النظر إلى الظواهر هو الذي يجعلنا نرى في النفوس تناقضاً . أما الناقد المتأمل فيستطيع أن يحس خلفها العلاقات الدقيقة الخفية ، وأن يرى الطريق الذي سارت فيه النفس من حال إلى حال دون أن تطفر أو تنقلب .

فالنفوس الإنسانية — ونفس الحجاج من بينها — لا يمكن أن تنطبق عليها رواية « دكتور جيكل ومستر هايد » ، كما نفهمها فهماً ظاهرياً .

على أن نفس الحجاج لم تكن أيضاً من تلك النفوس التي تجنح إلى الكفر فتطغى ، ثم إلى الإيمان فتنيب ، ولم يكن « على قدر إسرافه في قسوته يكون شعوره بخطيئته وزهده في دنياه » ، كما يقول الأستاذ في فرضه الثاني . كلا ، بل لم يكن الحجاج نادماً قط ، ولم يشعر مطلقاً أنه أخطأ في جبروته ، بل لقد كان تقياً صريح التقوى ، وفي كل الأحوال ، ولكن ... على طريقته هو وكما يفهم الدين وأوامره ونواهيه . ومن قال إن الدين الواحد لدى الناس جميعاً — حتى الأتقياء منهم — سواء ؟ فما دام الانسان متأثراً في فهمه وتأويله بحيائه وطبيعته وظروفه ، فلا سبيل للاتفاق المطلق ؛ فهذا كافر عند فريق ، وورع عند فريق . ولقد كفر الخوارج كافة المسلمين ، وأدخلوا في الدين أحكاماً وأوضاعاً آمنوا بها واقتنعوا ، وأهدروا في سبيلها الدماء والأموال ؛ فأي الفريقين كان إذاً من الكافرين ؟ !

ولكن الحجاج قد فهم الدين ، وفهمه على أنه الطاعة ، فمن عصى فقد كفر ، ومن كفر فقد حل دمه . إذاً فقد كان الحجاج يقسو عن بينة ، ويرى أنه إنما ينفذ مشيئة الله ويسعى لطاعته ؛ أفلم يأمر جل شأنه بطاعة أولي الأمر ؟ فما لأهل العراق العصاة البغاة ؟ ! أفلا يرجعهم إلى الجادة ؟

وقد ورد في خطبة له بالبصرة أنه قال : « قال الله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فهذه لله وفيها مثوبة ، وقال (واسمعوا وأطيعوا) وهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك بن مروان . أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد فأخذوا في باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالاً من الله » .

إذاً هو يرى الدين طاعة ، وطاعة عمياء في كل صغيرة وكبيرة ، لحق في رأيه ما يصطنع من أسباب . وليس لنا أن نسأل أأخطأ أم أصاب ، بل هل فعل ما فعل عن إيمان واقتناع أم اتخذه سلماً للأغراض . والحق أنه قد أخطأ ولكن عن يقين .

ولقد كان الحجاج مستمداً لذلك النوع من النهم إذ كان تابعاً لعبد الملك بن مروان، وهو الذي رفعه إلى تلك المنزلة السامية، فرأى في طاعته كل شيء. ثم تملكته شهوة الطاعة، طاعة المحكومين للحاكمين. ومتى استبدت بالمرء شهوة فقد عمى عما عداها، خصوصاً إذا كان رجل عمل كما كان الحجاج لا رجل فكر. رجل عمل يريد أن تستقر الأمور وتسير في طريقها مهما اتخذ من أسباب، لا رجل فكر يقلب الأمر ويمعن النظر، فيرى الأشياء من كافة الوجوه فتدخل نفسه السماحة ولا يملك التعصب لوجه دون آخر إلا في كثير من الرفق والحذر؛ وإذا رأى هواه قد تشبث بما بدا لعقله خاطئاً حمل نفسه بشتى ألوان الرياضة على أن تطمئن للحق. وتلك رياضة لا يفطن لها ولا يصبر عليها إلا قليل.

هذا، إلى أن عصره وما فيه من فتن مع منزلته التي جعلته من الناس حاكما، قد دفعته إلى أن ينشد استتباب الأمن والنظام، وأن يستأصل الذين مهما دفع من أثمان وأى حاكم يريد الفوضى في دائرة حكمه؟ وأيّا ما كان حاكم يتغاضى عن الفتن والقلاقل، ويرضى عن المروق والعصيان؟ إذاً لما قدر له أي نجاح.

ورب قائل يعترض: لِمَ لَمْ يصطنع الحيلة والسياسة؟ ولكني ما أظنها كانت تنجح مع كل الطوائف، فالخوارج وهم هم، واستمساكهم بعقائدهم على ما تعلم، ما أحسب السياسة كانت تجدي معهم شيئاً. ولكن ليس هذا هو كل السبب، بل إلى ذلك شيء آخر في طبع الحجاج.

لقد كان رجلا صلباً جافي الطبع، رجلا صريحا لا يداري ولا يداور، حتى ليجابه أهل العراق بقوله:

« يا أهل العراق إني لم أجد دواءً أدوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث، ولولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل فإنها تعقب راحة، وإني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم، وما أراكم إلا كارهين لمقالتي، وأنا والله لرؤيتكم أكره ... » كان صريحا لا يعرف سوى الأمر الصريح، فإذا لم يطع فليس أمامه سوى العقاب الصريح.

إذاً تجمعت العوامل التي جعلت من الحجاج رجلا قاسياً، وأنست من طبعه عجيباً، فأنتجت لنا تلك الشخصية الصارمة التي لم تمنعها قسوتها من أن تكون ورعة زاهدة واعظة من غير ما تناقض أو تعارض. فليس للحجاج شخصيتان، بل ليست شخصيته الواحدة من ذلك النوع الذي يميل للشر ثم يؤوب للندم، كما أن رواية « دكتور جيكل ومستر هايد » ليست مثلا لتعدد الشخصية، الذي لا يصدق على الرجل العادي وإن صدق في بعض الأحوال المعروفة في الأمراض العصبية؛ وما أظن أن مؤلفها قد قصد إلى شيء من ذلك، فما بالك بتطبيقها على الحجاج الذي أحسب أنه ما كان يستطيع أن يملك تلك الشخصية القوية التي هزت التاريخ الأموي لو أن أهون شيء من الازدواج قد تسرب إلى نفسه.

ملكة عبد العزيز

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى وعلى تبعته وحدى ، فمن سره فهو لى صديق ، ومن ساءه فليس أحب إلى من أن يجلو لى رأيه ويعرض برهانه ؛ لتصحيح رأى ، أو تعديل فكرة ، أو تحقيق خبر . وإن من الفضيلة ألا نثبت على الرأى إلا بمقدار ما نؤمن به ... "
(قاف)

المجلة المصرية :

هل فى مصر « مجلة مصرية » واحدة ؟ . . .

أعنى : هل فى مصر مجلة واحدة يسوغ لى أن أزعم أنها صورة صادقة التعبير عن « حقيقة » مصر التى تعيش اليوم على ضفاف هذا الوادى ، تُعرِّف بها من لا يعرفها ، وتُريه مالم ير من شئونها ، وتقرِّب البعيد من رسومها ، وتكشف عن الغامض من أسرارها ، وترسم بريشة الفنان وعدسة المصوِّر وقلم الكاتب ما يختلج فى أمانيها ، وما يصطرع من أهوائها ، وما يتنازعها من قديم الرأى وجديده وحديث الزى وباليه ؟

. . . هل فى مصر مجلة واحدة أستطيع أن أهديها إلى أخى فى بغداد ، وابن عمى فى دمشق ، وصديقى فى بيروت ، وجارى فى القدس — ، وأقول له : هذه بلادى وهؤلاء أهلى بعواطفهم ونوازعهم ورسومهم الاجتماعية وعوائدهم الخاصة والعامة ؟ . . .

. . . هل فى مصر مجلة واحدة تصلح أن تكون « بريداً عاماً » من كل مصرى هنا إلى أبناء عمومته هناك ، تربط بينه وبينهم برباط من المعرفة والرأى ، وتعرِّف بعضاً إلى بعض على الوجه الذى ينبغى أن يتعارف عليه أهلُ أسرة واحدة ووطن واحد تقاذفتهم البلادُ وترامت بهم الأقطار ؟

. . . اللهم لا . . . !

إلى ، فى مصر عشرات من المجلات :

الرسالة والثقافة ، الإسلام والفتح ، المصوِّر والاثنين ، آخر ساعة وروز اليوسف ، الصباح والبعكوكة المجلة الجديدة . . . إلى مجلات ومجلات لا تدخل تحت حصر . . . ولكن أين المجلة المصرية التى وصفْت ؟

تستطيع أن تجمع صفحة إلى صفحة إلى صفحات من عشرين أو ثلاثين أو أربعين مجلة مما ذكرْتُ لتُخرج من جملتها صورة واحدة فى لون واحد من ألوان حياتنا التى نحيا كلَّ يوم ، وتقول : هذا « عددٌ » واحد من « المجلة المصرية » التى لم تُنشَر لقارئها بعد . وهذا طيِّب وفيه غناء ، لو لم يكن إلى جانب هذه الصفحات القليلة المختارة من ثلاثين أو أربعين مجلة — مئاتٌ ومئات من الصفحات لا تصوِّر إلا هوى محرِّريها ، ولا تكشف إلا عن شهوات أصحابها ، ولا ترسم فى ذهن قارئها إلا الصورة التى ينبغى أن تُمحى ويَسكب عليها الليلُ من ظلماته السوداء ، فلا تقع عليها العينُ إلا ملموسة متوارية فى مداد الظلام !

. . . وإن القارئ فى الأقطار البعيدة ليقرأ كل أولئك فلا يعرف أين « حقيقة مصر » من كل أولئك ؛ بل لعل بريق الباطل بخدعه وتيمنات الهوى والشهوات تجتذبه فيزعم أن مصر هنا وإنها هُنالك !

كم قارئٌ وقارئةٍ قد زيَّن الباطلُ له ولها أن ما يقرأ ويشاهد ما صور فى بعض المجلات هو صورة مصر الحقيقية ، وأنه آخر مبتكرات المدنية ، فاندفع واندفعتْ وجرفهما التيار ، فإذا الفتى غير أبيه ، وإذا الفتاة عدوٌّ أمها ، وإذا صورته وصورتها وخبره وخبرها بعضُ ما تنشر المجلةُ فى « العدد التالى » للإيحاء والتغرير والإيهام !

بلى ، فى مصر عديد من المجلات ، تعبِّر عن رأى « أصحابها » فى الأدب ، وتصور مذهب « كتّابها » فى الفن ، وتكشف عن « أهواء محرِّريها » فى الحياة ؛ ولكن المجلة المصرية التى تعبِّر عن « حقيقة مصر » كاملة لم تنشأ بعد !

حَذار حذار يا إخوتنا فى فلسطين وسوريا ولبنان والعراق ، وفى عمان والرياض وصنعاء — حذار أن تسيئوا الظنَّ بنا وتستبقوا الحكم علينا بما ترون وتقرءون فى

هذه الصفحات التي ينقلها إليكم بريد القاهرة . إن حقيقة مصر العربية المسلمة ليست «كلها» في هذه الصفحات ، وليس منها «كل» هذه الصفحات !

أسواق الحسان :

كتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد إلى محرر المصور الكتاب التالي :

« تحياتي واحترامي ، وبعد فإنه جميل جداً أن تقام الاحتفالات الرائعة من أجل مساعدة الأعمال الخيرية ، وجميل جداً أن يشترك الآمنون في تخفيف الويلات عن المجاهدين الذين يبذلون دماءهم في سبيل الحرية والديمقراطية . ولكن . . . ألا ترى معي أن هذه الاحتفالات يجب أن يسودها روح المساواة ، وأن تسرى فيها نفسية العطف على النكبات المروّعة التي تصيب الإنسانية ؟

« إنه لما يثير نفسي أن أرى جنود المرح والرقص الصاخب والسرور الصائح في تلك الحفلات التي تقام من أجل مواساة جراح الإنسانية المذبة التي تئن وتبكي ! فهل أنا وحدي المخطئ في هذا الشعور ؟ » .

وأجابه محرر المصور في العدد ٩١٨ :

« . . . إن أهل الخير يستعينون بالمتناقضات والمتنافرات على النفوس التي « لا تندفع » إلا « لتنقبض » مرحاً وسروراً ولذة ! . . . »

اسمع يا فتى واسمعي يا فتاة .

« هذه الحفلات الرائعة التي تقرأ و تقرءين من وصفها وخبرها ، و ترى و ترين من أزيائها وصورها ، فيستهويكما ما تقرآن وما تريان — هي مزيج من طائفتين : طائفة تبيع المرح والسرور واللذة وطائفة تشترى المرح والسرور واللذة ، وعلى الباب بوّاب من « أهل الخير » يقبض ثمن المرح والسرور واللذة لينفق منه على البائسين والمحرومين والأشقياء !

لقد طالما شاقك أيها الفتى ؛ وطالما شاقك أيتها الفتاة . . . فأين يرضيكما أن يكون موضعكما من « السوق » التي قامت لتجارة « المرح والسرور واللذة » وليس فيها إلا بائع أو مشتر ، وكل طائفة تتفضل أختها لأن كل طائفة لحواها تعمل ؛ والبائس المحروم وراء الأسوار ينتظر انفضاض السوق ! ؟

شيطان وشيطانة :

بهذا العنوان قرأت في « الأنصار » مقالاً للمرحوم مصطفى صادق الرافعي ، يعيب فيه اختلاط الجنسين في معاهد التعليم ، ويقول :

« أفما رأيت شاباً وشابة حول كتاب علم وكأنهما على زجاجة خمر ؟ . . . إن هذا العلم شيء ، ومخالطة الشبان شيء آخر ؛ فذلك يطلق فكرها يتجاوز الحدود ، والاختلاط يجعل فكرها يحصرها في حدود إحساسها ؛ وأحدهما يرهف ذهنها لادراك الأشياء ، والآخر يرهف عواطفها لادراك الرجل . . .

« . . . ومن هذا الذي يستطيع أن يقرأ قصة تؤلفها أربع أعين في وجهين ؟ وكيف تكتشف الحقيقة التي أول وجودها كتمان الكلام عنها ، وأول الكلام عنها الهمس بين اثنين دون غيرهما ؟ ومن ذا الذي في طاقته أن يمد يده إلى قلبين أصبحا في تلقى الرسائل كصندوق البريد ؟ »

وهذا الذي نقرؤه للرافعي اليوم ، هو مذهبه ورأيه الذي ظل يدعو له مدة حياته ، وما زال صداه يتردد على شفاه طائفة من أصدقائه وأنصار رأيه ؛ وقد ذهب الرافعي إلى ربه منذ سنوات ، أفتراه كان يثبت على رأيه ذاك لو امتد به أجله إلى اليوم ؟ . . . وإن ابنة الرافعي اليوم لطالبة في كلية الآداب ، وما أراها رضيت ذلك لنفسها على خلاف في الرأي لأبيها ، وأحسبني قرأت لها رأياً في « الرسالة » منذ سنتين تنكر فيه على المرأة أن تزاحم الرجل في الأعمال العامة ؛ فأين رأيها من رأي أبيها في اختلاط الجنسين بمعاهد التعليم ؟ وأين عملها من رأيها ؟ أتراني أظفر من الآنسة الأديبة بالجواب ، فأقرن

رأياً إلى رأى ، وأعرف أين « التجربة » من « النظرية » ؟

شاعر الوحل أيضاً :

عرضتُ فى هذا الباب — منذ أسبوعين — لأبيات من الشعر نشرتها الرسالة « للشاعر المجهول » يعتب فيها على محبوبه أنه أباحه من نفائس عطفه ، « وصرف عليه من ماله » ، فلم يسلم صدره من سهامه ، ولم يسلم « جيبه » أيضاً .. إلى آخر ذلك « الغزل القروشى ... » ، وقلت إن هـذا لون جديد من الغزل يستحق التسجيل ، لأنه يمثل مظهراً من مظاهر « السياسات الاقتصادية » التى فرضت نظامها فى هذا العصر على كل شىء ، حتى قلوب العاشقين و « جيوبهم » !

وانتهيت إلى قول الشاعر المجهول لحبيبه :

مضيت إلى غيرى جهـــاراً وخنتنى

فمن أىّ وحل صِيغَ طبعك خبّرنى !

فنوهتُ بعبقريته فى قوله : « من أىّ وحل صيغ طبعك ؟ » ، وهو تنويه كان ينبغى ألا يفوتنى فيما أظن ، فليس من اليسير أن يقع الانسان على كثير من مثل هذا التعبير بين شعراء الغزل ! . . .

ولكن الشاعر المجهول — لم يُرضه ما كتبتُ تنويهاً بشعره وتعريفاً بفضله ؛ فنشر بالعدد ٤٦٣ من الرسالة كلمة على أسلوبه وطريقته يهدّد فيها « قاف الثقافة » بالرجفات التى تزلزل قمم الجبال ، ثم راح يلقى علينا درسا « هو الفيصل فى معضلات النقد الأدبى » ؛ وإنى ليسرنى أن أستمع إلى كل متفضّل يحاول أن يعلمنى مالم أكن أعلم !

ولكن ماذا قال ؟ . . . لقد ظنّ أن كل ما عبته على شعره هو استعمال كلمة « وحل » ، فراح يحاول إثبات أنها أبلغ كلمة فى هذا المقام ، قال :

« . . . وكلمة وحل وردت فى قول مسلم بن الوليد :

مشينا بها مشى المقيّد فى الوحل

« . . . وأقبح من كلمة وحل كلمة مستنقع ، وقد وردت فى قول أبى تمام :

فأثبت فى مستنقع الموت رجله

« لو كان (قاف الثقافة) يعرف أسرار البلاغة لأدرك أن الكلمات تأخذ قوتها وبلاغتها من السياق . . . » الخ

وإنى لأشكر له محاولته الوصول إلى كل ذلك ؛ ولكن حق العلم يقتضينى أن أزيد على ما قاله شيئاً لعله لم يقله استصغاراً لشأنه لا جهلا به : أما مسلم بن الوليد فذلك قوله فى الخمر :

إذا ما علت منا ذؤابةَ شاربٍ

تمشّتْ به مَشْىَ المقيّد فى الوحْلِ

وهى كما ترى صورة بديعة للسكران تتجاذب الأرضُ رجليه ؛ وكان الظن أن يعرف أن الوحل الذى يقيّد رجلى السكران غير الوحل الذى صِيغَ منه حبيبه الخائن جهاراً نهاراً بعد ما أنفق عليه من جيبه !

وأما أبو تمام فذلك قوله فى رثاء محمد بن حُميد الطوسى :

فتى مات بين الضرب والطعن ميتةً

تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ

وما مات حتى مات مضربُ سيفه

من الضربِ واعتلّتْ عليه القنا السُّمر

وقد كان فوتُ الموت سهلا فردّه

عليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعرُ

ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنه

هو الكفر يوم الرّوع أو دونه الكفرُ

فأثبت فى مستنقع الموت رجله

وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ

وإنما عنيتُ بأن أذكر هذه الأبيات كلها على قلة احتفالى بالشواهد فيما أعالج من نقد الشعر ؛ ليعرف أن « مستنقع الموت » فى شعر أبى تمام غير المستنقع الذى أوحى إليه أن يقول لحبيبه يعاتبه : « من أىّ وحل صيغَ طبعُك ؟ » .

قاف

من هنا وهنــاك

مـــدفع برتا (Bertha)

فى أوائل أيام الحرب الحالية عندما هبت فرنسا وانجلترا معاً لمساعدة بولندا باعلانهما الحرب على ألمانيا، صرّح هتلر فى خطبته الأولى أن لديه سلاحاً سرياً فتاكا سوف يستعمله جنوده فى الوقت المناسب وفى المكان الذى يختاره، وسيكون له عندئذ مكانته بين الاختراعات الحديثة. ولم تمض بضعة أسابيع على تلك الخطبة حتى ظهرت الألغام البحرية على أنواعها، وظهر معها الخطر الدائم الذى هدد طرق المواصلات على السفن الحربية والتجارية.

وقد قابلت الدول المتحالفة هذا السلاح بطرق مضادة فعّالة قللت كثيراً من تأثيره، وأبطلت فى حالات عدة من مفعوله؛ ومن بين هذه الطرق ظهرت كاسحات الألغام والطائرات ذات الأطواق المناطيسية (وسنأتى على شرحها فى مقالات أخرى إن شاء الله). وظنّ فى ذلك الوقت أنه قضى نهائياً على السلاح السرى الألمانى، وأن أساليب الحرب الحالية سترجع إلى ما كانت عليه فى الحرب العظمى الماضية. ولكن رجعت الدعاية الألمانية مرة ثانية وقالت إن السلاح الذى هدد به هتلر لم يستعمل بعد، وإن الوقت المناسب لاستخدامه لم يأزف . . . وأخيراً قرأنا فى أحد البلاغات السوفيتية فى الأسبوع الماضى أن الألمان أخذوا يستعملون فى الميادين الروسية بعض المدافع الجديدة، وأن مفعولها شديد جداً وتأثيرها فى غاية من القوة والبطش. فذكرنا هذا بمدافع برتا الهائلة التى كانت تستخدم فى الحرب العظمى الماضية لصب نيران قنابلها على باريس وما جاورها من البلدان.

والمعتقد حتى الآن أن تلك المدافع المستعملة ضد روسيا هى بنفسها مدافع برتا بعد إدخال تحسينات عليها مستمدة من تطورات علم الآلات الحربية فى ربع القرن الأخير، ولا يزال سر تركيب هذه المدافع ودقائق أجزائها مجهولاً للحلفاء.

وأغلب الظن أن هذا النوع من المدافع هو سلاح ألمانيا السرى الذى طالما تكلمت ألمانيا عنه وتوعد به هتلر أعداءه. وسيظل هذا مرجحا إلى أن تظهر لنا الأيام سلاحاً آخر. وقبل أن أشرح بعض خصائص هذا المدفع يحسن بى أن أذكر أن المعلومات التى سأدونها فيما يلى مستقاة من تقرير الجنرال شيّاه General Challiat وهو الرجل الفرنسى الوحيد الذى شاهد هذا المدفع الجبار عندما أسر فى الحرب الماضية.

أدلى هذا الضابط بمعلوماته عندما رجع إلى بلاده فى أواخر عام ١٩١٨ إلى وزارة الحربية الفرنسية. وتقريره هو الوحيد من نوعه فى العالم فيما يتعلق بمدفع برتا، وقد عثرت عليه فى مجلة فرنسية نشرته عام ١٩٣٨. فاقتبست منه هذا المقال.

* * *

استيقظ أهل باريس فى صباح يوم ٢٣ من شهر مارس سنة ١٩١٨ مذعورين على أثر انفجار شديد من قنبلة كبيرة كانت قد سقطت فى أهم ميادينها، اهتزت لها جدران المنازل وارتجت لها الأرض، وسجل مرصد ليون فى هذا الوقت بعض الاهتزازات. وكان الألمان لا يزالون فى بلجيكا على بعد مائة وثلاثين كيلو مترا تقريبا من حدود العاصمة الفرنسية. لقد ظن الباريسيون فى بادئ الأمر أن طائرة من طائرات الأعداء أفلتت من بين نقط المراقبة الفرنسية وأغارت فجأة على العاصمة ثم قذفت ببضعة طوربيدات فى وقت واحد وفى مكان واحد. ودوت فى الحال صفارات الانذار وهرع الجمهور إلى المخابىء، بينما كان الضرب لا يزال مستمراً، ولم يك مع ذلك أثر لطائرة ما.

وعندما انتهى صوت القنابل فى الساعة الثانية بعد الظهر

كان قد عُرف أن هناك مدفعاً هائلاً على الحدود البلجيكية منحرفاً بمقدار ٦٢° ومصوباً نحو باريس يقذف المدينة بنيران قنابله . قال شابوه في تقريره : « ... وكان طول ماسورته أربعة وثلاثين متراً ، وقطرها متراً . أما وزنه فسبمائة وخمسون ألف كيلو جرام ! ! » ولكى نستطيع تصور مدى قذيفته نقول إنه إذا نصب أحد هذه المدافع في دمنهور فإن قنابله ستسقط في وسط مدينة القاهرة ! ولكى ندرك مدى مفعول قنبلته نقول إنها تحتوى غرفتين بهما مائة وخمسون كيلوجراماً من البارود ، وإنها مصنوعة بحيث تنفجر في كل أوضاع سقوطها ، فلا خوف هناك من عدم الانفجار واستحواذ العدو عليها واستفادته منها . أما ثمن تلك القنبلة فكان بلا ريب باهظا جدا ، إذ أنه كان يعادل ما قيمته ثلاثة آلاف من الجنيهات المصرية على التقريب !

كان الألمان يتوهمون أنه بهذا المدفع وبأمثاله يمكن إحباط عزيمة فرنسا في الحرب ، وبث الرعب والفزع في قلوب الفرنسيين . ولكن كانت روح الشعب المعنوية في هذا الوقت قوية عظيمة ، وروح العداء نحو الألمان كبيرة إلى حد لا تزعزعها قنابل مدفع . فأخليت باريس أو معظم مناطقها في الحال ، وهجرها سكانها إلى مدن فرنسا الجنوبية . وبقى على الجنود بعد ذلك معرفة موقع المدفع ، كى يتسنى ضربه وإبعاد خطره . فطارت الطائرات ، ونشط الجواسيس ، وعلى ضوء الاستنتاجات الرياضية ، عُرف موضعه على وجه التقريب . ولكن كان من العسير — بل قل من المستحيل — أن يحاصره جنود أو تقترب منه طائرة ، وذلك لشدة الاستحكامات حوله وقوة الدفاع عنه .

وفى عام ١٩٢١ وبعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات أعيد الكلام عن مدفع برتا . ولكن كان ذكره في تلك المرة من مصدر ألمانى عليم . فقد كتبت إحدى المجلات في هذا الصدد تقول : « عندما تم تركيب هذا المدفع أطلق عليه اسم « مدفع باريس » Pariser Jeschütz . وذلك للقصد الذى عُمل من أجله .

« وكانت قذيفته ترتفع في الهواء مسافة أربعين ألف متر ، وتصيب هدفها بعد ثلاث دقائق ونصف دقيقة من ابتداء قذفها ، وقد انطلقت منه ثلاثمائة وعشرون قنبلة طوال مدة الحرب ، كان نصيب باريس منها مائة وثمانين .

« ويستغرق شحن المدفع زمناً يتراوح بين خمس عشرة دقيقة وعشرين دقيقة ، يتعاون في خلالها ستون جندياً . وقد أعطى الأمر بقذف أول قنبلة منه في الساعة السابعة والدقيقة التاسعة والثانية الخمسين ، من صباح يوم ٢٣ مارس سنة ١٩١٨ » .

أما باريس فقد عانت كثيراً من شظايا القنابل ، فسقطت منازلها وتعدد ضحايا أهلها ، وتهدمت آثارها ، ولم يبق منها سوى أكوام كانت فيما مضى قبلة السائحين وقصاد الزائرين .

وكان آخر إطلاقه في اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ١٩١٨ . وبعد ذلك فُككت أجزاؤه ونقلت إلى ألمانيا .

وقد حاول الجواسيس جهد طاقتهم في المدة التى انصرمت بين الحربين الماضية والحالية ، معرفة الشيء القليل أو الكثير من هذا المدفع ، والمكان الذى صُنع أو يُصنع مثله فيه . ولكن ذهبت مجهوداتهم عبثاً ، ولم يُعثر له على أثر ! . . .

محمد أحمد أمين

حكمت محكمة المنوفية العسكرية في الجنحة ٤٧ سنة ١٩٤٢ بتغريم عميه إسماعيل على من سبك الأحمد مركز أشمون ٢٠٠ قرشاً لعرضها للبيع ذرة بسعر أزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة مصر العسكرية في القضية رقم ١٤١ سنة ١٩٤١ عسكرية الموسكى بتغريم محمد حسين على خمسة جنيهات لامتناعه من بيع سكر بالسعر المحدد .

العقد الفريد

اطلعت على الجزء الأول من كتاب العقد الذى تخرجه لجنة التأليف والترجمة والنشر أيام ظهوره، وقرأت جملة منه، فوقفت عند بعض الكلمات وبعض التصحيحات، وكتبت مقالة فى ذلك أرسلتها لمجلة الرسالة الغراء، فلم تنشرها — ولست أدرى سبب ذلك — ثم نشرت بعد ذلك فى هذا الموضوع مقالات « لاستاذ جليل » وأظن أنه لم يتمها.

إن الكتب القديمة أمانة فى عنق كل أديب، وإصلاحها من أوجب الواجبات، وكل من وجد فيها شيئاً وجب عليه أن ينبه إليه، وإلا كان ظالما ومقصرا فى أداء الحقوق.

وعلى هذا الأساس أبعث لثقافة الغراء بهذه التصحيحات رجاء بحثها وتمحيصها.

١ — كتب معاوية إلى زياد: « إنه لا ينبغى أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلن جميعا فتمرح الناس فى المعصية، ولا نشتد جميعاً، فنحمل الناس على المهالك» هكذا كان الكلام فى النسخة القديمة التى مع من العقد، ولكنه فى النسخة الجديدة: « لا نلين » فلماذا؟ إن سياق الكلام يقتضى أن تكون « لا » ناهية لا نافية، لأن معاوية يوجه زيادا إلى أصل من أصول سياسة الناس، وقد جزم المضارع المبدوء بنون المتكلمين بلا الناهية، وذلك كقول الوليد بن عقبة:

إذا ما خرجنا من دمشق فلا نعد
لها أبداً ما دام فيها الجراضم

وأشاروا فى كتب النحو إلى أن ذلك نادر، ولكنى أبين هنا أن هذه الندرة ليست ترجع إلى ضعف القاعدة النحوية، وإنما ترجع إلى قلة دوران هذا المعنى فى استعمالات الكلام.

٢ — جاء فى صفحة ٩٤: قال المغيرة بن شعبة: « أحب الإمارة لثلاث، وأكرهها لثلاث، أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء. وفى النسخ القديمة: « وفوت العزل » وكلاهما خطأ والصواب: « خوف العزل ».

٣ — فى صفحة ٤٩ جاء فى وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز: « وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب لم يصدقوك فى الحق » وهذه العبارة محتاج لتصحيح بدون شك، وقد صححت هكذا: « وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب، فانهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق » أقول: إن هذه الزيادة الطويلة فى التصحيح ينبغى ألا تكون إلا أمكن البعد عنها، وذلك حتى يسير الكلام على نهج واحد وأسلوب متسق، أليس الأحسن أن يقال: « وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب وإلا لم يصدقوك فى الحق »، بزيادة إلا دون غيرها فى الوضع المناسب لها. أو يكون التصحيح هكذا: « وإياك إن يظهر لرعيتك منك كذب لم يصدقوك فى الحق » وظاهر أن « إنك » قريبة من « إياك » فى الخط، وتحريف إحداهما عن الأخرى أمر غير بعيد.

٤ — جاء فى هذه الوصية: « واستشر جلساءك، وأهل العلم، فان لم يستبن لك يأتك رأبى فيه إن شاء الله» وكنت أحب من حضرات المصححين أن يبينوا مرجع الضمير فى كلمة « فيه ».

أكتفى الآن بهذا القدر آملا أن تسمح الفرصة بالتابعة إن شاء الله فى أعداد قادمة.

الزقازيق — عمر عبد الخالق

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين، مصر